

سميرة عزام والنكبة

بقلم عيادة طرعي دريس

ما تكتب وحسها العميق بمسؤولية ما تكتب حتى بلغ بها احيانا هذا الوعي الاسراف في الصنعة .

وهذا الوعي ، سلطته حتى على ابعاد القصة . فخدمتها بشتى وسائل الكتابة القصصية والاعلامية ، ولم تكن مندفعة اندفاعا خياليا تطيح بكل صعوبة تعترض الوضع ، في حين انها لم تفقد الامل والعمل للمستقبل ، فكانت القضية التي تعيشها حياتيا تعيشها فنيا ايضا . وقد عبرت عنها في سيناء بلا حدود التي ترمز ، كما حدثتني بها ذات يوم ، الى الخلاص . ولكنها ، كانت ، ككل قصاص عربي مخلص مع ذات نفسه وضميره يقف عاجزا عن استشراف اية نهاية تحمل في طياتها بنور ياس او امل . وكانت ثقل الامل ، لكونه الطريق الوحيد والبرر الاول الذي يمكن للفلسطيني ان يحيا من اجله .

وبالرغم من ان ابطالها لم يكونوا جميعا من الفلسطينيين فانهم مع ذلك يحملون في نفوسهم هما والما ووحدة قاتلة ، سواء كانوا رجالا ام نساء ام حتى مراهقين . ان الحزن ، هو النغم المسيطر ، والجو الكئيب يعكس في كل قصة قلقا وتساؤلا عن المصير . وبالرغم من الالم تترك سميرة عزام للامل نافذة مشرعة وابوابا يسرب منها النور بالرغم من كونها مغلقة .

وفي غمرة هذا النور ، وفي حميا الامل والعمل ، حلت الكارثة وتتابعت الهجرة من جديد ، وعادت المأساة الاولى تتجدد ، اكثر هولا واشد ايلاما منها منذ عشرين عاما ، وعادت الوف الرؤوس تزحف عبر الصحراء ، تشوبها اشعة الشمس المحرقة كما يسبح النابالم دهنها . وعادت العيون تتراكم ، ويتراكم معها الخوف والرعب والموت . والعالم كله يقف متفرجا ، وتنطوي صفحات ويعود الناس من حولها الى همومهم العادية ، ويتلذذ الفول ابعادا عربية جديدة . وسيطر الياس على سميرة حتى الموت ، هي التي لم تحيا لولا الامل .

اذا قال احدهم ان النكسة الاخيرة ، كانت سببا في نهايتها ، فلا تستغرب . ان حياتها الفنية ، وهي اصدق مظهر من مظاهر التعبير النفسي تشهد على ذلك . ان الحلم الذي يرتعش بنفس العودة يسري في شرايين ادبها ويطبها نسغ الحياة . فاذا غشي الضباب الكثيف هذا الحلم الجميل كانت النهاية نتيجة حتمية له .

لقد جاهدت سميرة عزام فنيا في سبيل القضية العربية وصورت حنين الفلسطيني وتمرده ونضاله . وترجمة اثارها الى اللغات العالمية من مستلزمات الدعاية العربية وانجتها اثرا التي تعرف العالم على افظم جريمة ارتكبت في هذا العصر : جريمة ان تحرم انسانا من ارضه وسمانه وجنوره العميقة التشعب في شرايين التربة المتروية منذ الاف السنين بالعرق والدم والاجساد . هل هناك شيء اكثر بدهاءة ؟ ولكن كم يبدو هذا العالم ليديا ، فاقد حس الادراك ؟ وبالرغم من بلادة هذا العالم ومن ظلمه ومن لامعقوليته فان الشعب العربي الذي عانى والذي لا يزال يعاني هذه الفاجعة التي هي اكبر فاجعة في تاريخه القديم والحديث لن يتراجع ولن يستسلم ولن يرضخ للظلم . لقد كان التاريخ العربي كله ضد الظلم والظالمين وسيظل هذا الشعب ، امينا على تاريخه ، حريصا على ان يضرب اروع الامثال في التصحية والصراع ضد الظلم وستظل سميرة عزام في ادبها وحياتها عنوانا من عناوين هذا النضال والقاومة . القاومة حتى يزول وجه هذا العالم المشوه ، وتعود الارض تحتضن ابنائها الشرعيين .

ما اريد ان اقله اليكم ، هذه اللحظات ، صورة محببة اليكم ، الصورة الحقيقية لسميرة عزام ، الكاتبة والانسانة الفلسطينية التي عاشت قضية شعبها كأميق واصدق ما يمكن لفلسطيني وعربي ان يعيشها . سميرة عزام ، بهذه الريشة الدقيقة التي ترسم بها ابعاد التشرذم والهجرة والعذاب والابواب المفلقة تجعلك تحيا مأساة النكبة ومأساة ان يعيش الانسان بلا ارض وبلا جذور تشده الى واحشات الطفولة واحلام الشباب ومرقد النهاية . تدخلك الى عالمها الفاجع وتزجك في عذاب ابطالها وحينئذ من دون اية محاولة لاقحامك بالقوة بواسطة الفاظ خطابية او رنانة ، وتعمل في نفسك ما يحمله الفنان الحق من شحنات التعاطف والانصهار . فليست فلسطين بالنسبة اليها في سنوات الهجرة الاولى الا حينا للحرية ولاشجار البرتقال وللارض الخيرة ، وللسماء السمحاء وللشمس المظهرة . فلديها يمكن في انشودة طفل سعيد ، واستراحة قصيرة ، وعودة الى البيت عند الغروب ، وحديث واعد عن غد مشرق ، يتسامر به زوج بعد غناء يوم طويل . اجل ، تلك هي حياة الفلسطيني قبل الهجرة ، وحين ترك ارضه ، فقد هذا كله ، فقد هذه النعمة التي لا تقدر والتي ترتبط على بساطتها باعمق اسلاك عناصر الانسانية في الانسان . بهذه البساطة وهذا العمق ، تصور سميرة عزام الجريمة التي ارتكبتها العالم بحقها .

وتمر فترة الحنين المشحونة برصيد الالم والشاعرية ، لتعطيك سميرة عزام صورة اخرى لتطور القضية ، صورة الذين قاوموا الهجرة . وماتوا ابطالا في ساحات الشرف ، ابطالا ليس لديهم من معدات الدفاع اكثر من تلك الروح التي تغلي حينا وحقدا ورغبة في الانتقام . ان سميرة عزام تجعل الحقد عاطفة انسانية ، مشروعة ونييلة ، حين يعتمل في صدر رجل قضى حياته يرصف مداميك بيت صغير شهيد اجمل ايام حبه ، وفرحة عمره وطفلا بريئا وهبه كل حنانه وكل امسل في البقاء ، البقاء ، فريضة الانسان منذ الازل . ثم يترك كل شيء ، ماضيه ومستقبله ، فلا يبقى له الا هذا الحاضر الكئيب الذي يدفسه سريعا عبر الصحراء الكاوية تحت ازيز الرصاص ، وعلى مشهد بركان من الدم يتفجر من الجسد الطريء ، جسد وحيدة ، ويسلق يديه وحياته .

ومن الحنين ، الى الحقد ، الى الثار تطور مراحل القضية في قصص سميرة عزام . ان النفس الشعاري يضعف ، وتحل محله نغمة الفداء والبطولة واكل الرغيف الغمس بالدم املا في غد تشرق الشمس فيه من جديد . ويتطور فن سميرة . فبينما نراها تعتمد في اوائل قصصها على التحليل النفسي ، وعرض المشاهد والتعليق عليها ، نراها في المرحلة التالية ، اقل تدخلًا واكثر فطنة . انها تصور وتسرود وتقص . ولكنها لا تتدخل ، ولا تعلق ، بل تترك للقارئ ان يفعل ويندمج ويعلق . ان احراق مخزن مؤونة وكالة الاعاشة يرمز الى تمرد الفلسطيني على الرغيف مقابل صبره وسكوته ، وان انحراف البعض في اعمال اللصوصية والاجرام تبشير فظيع عن نفسية اولئك المواطنين الذين يحيون بلا وطن وبلا مستقبل ، في الوقت الذي تصورهم فيه ، في ظروف اخرى ، مثلا للرجولة والكرامة والانسانية .

وتبلغ سميرة عزام في قصصها الاخيرة مستوى رفيعا ، كرافع ما بلغتته القصة القصيرة على الصعيد التكنيكي والفني . وحين تقرأ مجموعتها الاخيرة ، وخاصة القصص التي لم تنشر بعد في كتاب ، يستولي عليك هذا الشعور الحاد الذي تملك الكاتبة وهو وعيها في